مأساة حب

ريحانة شوقراني / الجزائر

يمر الزمن ، ساعة ساعة، لحظة، لحظة لكنه لا يمهلنا وقتا لنتوقف و لا ليتوقف ، إنه مثل الطاغية الذي يكسر قلوب العذارى ثم يدوس عليها و يمضي ، فلا يعرف له متى يدبر و لا متى يُقبل إنه يعيش لمجرد العيش فقط ... و هكذا كنا نحن ، أو بالأحرى كنت أنا ، لم أعرف متى كانت بداية هذه القصـــة و لا بأي نهاية كانت ، كأنها خلقت من رحم الأزلية لتتمرد على جبروت الأبدية ، لا زلت أذكر ذاك اليوم مثل يومي هذا بل أكثر ، يوم قلت لي بكل حماسك المعتاد: متى ستتزوجين ؟ هل العريس وسيم ؟ أم أني أكثر وسامة منه؟ وهكذا كانت أسئلتك ،دائما تصيبني بالجنون ، كنت تفكر في زواجي و كنت لا أزال أعيش قيد الحاضر و لم أفكر في قرع باب المستقبل بعد ، ضحكت حينها و ضحكنا معنا و ما أحوجني لتلك الضـــحكة الآن؛ أتعرف أنه لم يخطر على بالي مطلقا أني ســـأقع في شـــباك حبك حتى النخاع ، ووقعة الشاطر بألف كما يقال .

كان وائل رفيق عمري منذ الصغر ، شاب أسمر ذو بنية قوية، فارع الطول، شعره فحمي يصل إلى شحمة أذنية ،ذو ملامح حادة كأنه خرج من فيلم بوليسي ، كانت عيناه أحب شيء على قلبي كأنهما قطعة من زخرف الليل ، عندما كنت أنظر إليه كنت أرى الحياة بلون آخر و أحس أن لها طعما آخر ، ولم أكن أعرف أن للحب ضريبة ...

كانت كل أيامنا تمضي كلمح البصر فكأننا سرقنا من عمرنا سنوات الطفولة لنكبر بسرعة أو أننا بعناها بثمن بخس لزمن من هذه الأزمنة العابثة، فوجدنا أنفسنا في زمن آخر تحكمه شرائع أخرى و دساتير بلهاء تنادي بإسقاط معاهدات الطفولة ، لقد صرنا كبارا و لابد أن نمضي في الحياة لا أن نتراجع، و هذا ما لم أحسب له حسابا قط.

كنت تقول لي: بلقيس

- نعم

-أتخيلك و أنت عروس،

- وماذا تتخيل إذن ؟!

-ستكونين الأجمل و الأكثر حظا على وجه الأرض ،

- كيف ذلك ؟

فتجيبني و أنت تضحك : لأنك رفيقة وائل يا بلقيس ، وسأزفك بنفسي الى زوجك المستقبلي ..

كانت ابتسامة باهتة ترتسم على وجهي ، و لم يكن أحد يحس بالغصة التي في حلقي و الجمرة التي كانت تكوي قلبي لتجعله يتأوه من فاجعة القدر ، كنت أكابر لأمنع سيل دموعي من الهطول ...كنت أصرخ في نفسي : لم تفعل هذا يا وائل ؟ ألست جميلة ؟

ألم تقل لي بأني أبدو أوروبية الملامح ،خصـــلات شـــعري صـــفراء و عيناي زرقاوان كزرقة البحر و بياضي واضح للعيان، لطالما نهش هذا السؤال عقلي : لماذا لم تحبني ؟

لكن و للأسف مع كل محاولاتي لم أكن أهتدي للإجابة ، و كنت أسِرُ السؤال في نفسي فقط ..

في كل ليلة تمضـي كنت أضـع رأسـي على الوسـادة و أبكي بكاء مكتوما لا يسـمعه غيري ، إنه الشـجن الذي تعزفه أوتار قلبي والذي كنت أخطه بحبر دموعي على صـفحات الدفتر الذي يشـهد على معاناتي ، كنت أحمل صـورك بين يدي لتذكرني بأني خالفت شـرائع القدر و أحببتك ، بقدر كل تلك الحروف التي سَرقْت و تلك الدموع التّي ذَرفت ،بقدر الشموع التي أحرقت يدي من السهر و بقدر الأوجاع التي رمتني على عتبات الهوى أسأل عنك ، و بقدر النجوم التي تسمع نحيبي و أشجاني ،أحبك ،بقدرها جميعا أحبك ،

إني سجينة حب محكوم عليه بالإعدام منذ المهد، و رغم يقيني بهذا إلا أني تشبثت به ، ليقودني للهاوية،

يوم أخبرتني أنك تعد لي مفاجأة ،لم تكن الفرحة لتســـعني و ذهبت بي الظنون بعيدا بعيدا و رحت أبني أحلامي من الورق و ألونه بما طاب لي ، كان موعدنا في نفس المقهى الذي اعتدنا الذهاب إليه ، انتظرتك و أنا كلي لهفة و شوق لرؤيتك ، لمحت طيفك من بعيد و رأيت شخصا معك ، إنها سهام ..! كنت أمعن النظر إليك ، محاولة إقناع نفسي بأني أحلم فقط ، نظرت إلي و أمسكت بيد سهام و قلت لي : سوف نتزوج ، فهل تقبلين أن تكوني شاهدة على الزواج؟ توقف الزمن عندي ، بهت و لم أستطع التفوه بنصف كلمة ، صرخت في نفسي بأعلى صوت : سيتزوج ..!

مسحت دمعة هاربة من عيني و قلت لك : مبروك .

فقلت لي : هل أنت موافقة ؟

- نعم .

كم تمنيت أن تكون تلك النعم جوابا لســـؤال آخر و لكنه القدر ، لقد طار قلبك فرحا بموافقتي و رحت تسهب في الحديث و أنت تركز النظر في عيني سهام و رحت تقول : هي الإنسانة التي اختارها قلبي ،لا أخطأت بل سرقت قلبي بخطة جهنمية لا أدري ما هي ، و سكنت روحي من دون أن تسألني حتى ، و ها هي الآن تسرق عقلي بابتسامتها هذه ،نظرتَ الي و رُحت تضحك على خجل سهام و احمرار خديها ، ابتسمت لك و كتمت ما كان يجري داخلي من فوضى عارمة، لقد قتلتني في كل كلمة قلتها و نحرت كبدي أضحية ليوم عرسك ، أتعرف ذاك الشعور بالفقد ، و أن تريد احتضان شخص ما ، أن تعانقه بقوة و تبكي على صدره ، أن تشكو له همك و أن تذوب روحك في روحك لتكون روحا واحدة ، و أن تكون همسة من همساته بلسما لجرحك ،و لكنه غير موجود و لن يكون ،أعرف أنك لا تعرف هذا الشعور .

إنه الموت في حد ذاته ، إنه العذاب الذي لن يستطيع بشر ما تحمله ، إنها طعنات تسددها الحياة نحو قلب نازف و روح يائسة وعيون ذابلة ،،،

لقد أصبح قلبي مقبرة لا تسكنها إلا أشباح الماضي...غالبا ما كنت أقرأ قول المتنبي لكني و لأول مرة عشـــته و نزف قلبي في كل حرف من حروفه ،حين يقول :"لا تَعذُل المُشتاقَ في أَشواقِهِ...حتّى يَكُونَ حَشاكَ في أَحشائِه"

لا أحد ســـيحس بك و الكل ســـيتهمك بأنك المخطيء ، منذ متى كان الحب خطيئة ؟! والله إن الشـــوق لأصعب ما في الأمر ، أن تشتاق لطَيْف لا يمكنك أن تلمسه لأنه سيتبخر ..

كنت الشاهدة يوم عرسك ، حضرت بجسدي البالي و روحي الميتة وحملت معي قلبي

الأجوف الجريح و لبســـت ثوب الصـــمت ،لقد كانت هناك مأدبة ، الكثير من الضـــيوف ،و الكثير من الضجيج و أنت تجلس في وسط القاعة و على الكرسي المجاور لك سهام، رحت أنظر إليكما و أقول في نفسي : كم أتمنى لك السعادة يا وائل ، حفظكما الله و بارك لكما ، انتهت مراسيم العرس و دقت الساعة معلنة عن انتهاء آخر دقائق حياتي ...

أما آن لي أن أقول الوداع ؟ و يداوى قلب قد انفطر؟

أما آن أن تشفى الجراح و تفك قيود حب قد انكسر؟

ما بقيت في الروح حياة و لا حياة في جسد ألمّ به الضرر، و لو كان الموت دواء لكانت الروح تختار أن تقتل أو تنتحر، آه لو كانت الأفلاك تســـمع لناديتها أن خذيني و أغرقيني في بحر من دموع المطر ، و كفنيني بياســـمين حزين و بعض من أوراق الشـــجر ، فربما يتوب قلبي عن هواه و يمضـــي الحزن إلى حيث لا سمع و لا بصر ،

هذا ما كتبته المواطنة بلقيس الشـــامي قبل حادثة انتحارها في مســـاء الليلة الماضـــية و قد أفادت التقارير بأنها رمت نفسها بكامل إرادتها ووعيها في البحر لأسباب شخصية .

انتهت حياة و بدأت حياة فكيف ستكون تلك الحياة التي بدأت ؟!